

الفصل الثالث عشر

الرَّحالة التركي أوليا جلبي، وكتابه سياحتنامه

(١٠٢٠-١٠٩٥هـ/ ١٦١١-١٦٨٤م)

عليان الجالودي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة آل البيت

omaniunit2009@aabu.edu.jo

المقدمة:

سنواتٍ على يد نخبة من الأساتذة، وفي مُقدِّمتهم (أولياً محمد أفندي)، الذي قيل: إنَّ (أولياً جلبي) انتسب إليه، وحسن أفندي الجُني، وأخفش أفندي، إضافةً إلى والده الذي تعلم على يديه حُسن الخط، وفنَّ سَبْكِ الفِضة. وانتقل بعدها للدراسة في مدرسة القصر العثماني للخدمة الداخلية (أندة رون) التي تأسست في عهد السُلطان مُراد الرابع (١٦٢٣-١٦٣٩م)، وفيها تلقى علومه في علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والأدب، واللغات اليونانية والعربية والفارسية، فضلاً عن علوم المنطق والرياضيات، وأصول وتقاليد البلاط العثماني، والفنون على اختلاف أنواعها.^(١)

وبعد إكماله تحصيله العلمي عُيِّنَ (أولياً جلبي) في قصر السُلطان العثماني مُراد الرابع، بوظيفة في مُستودعات القصر، قضى فيها أربع سنواتٍ، انتقل بعدها للعمل في فرقة الفرسان (السباهية) بعد تعيينه براتب قدره أربعين أوقية،^(٢) وساعده عمله في القصر على توسيع مداركه، إلى جانب تكوينه العلمي، وتنوع مشارب ثقافته؛ ممَّا أهله لتقلد مناصب مُتقدِّمة، من بينها: مُؤدِّن وإمام لبعض الصُدور العظام (الوزراء) في عهد السُلطان إبراهيم خان (١٦٣٩-١٦٤٨م)، إضافةً إلى توليه مناصب رسمية أخرى.^(٣)

ويُعدُّ العام ١٦٤٨م علامةً فارقةً في حياة الرَّحالة (أولياً جلبي)، وبدايةً لانطلاقه في رحلاته التي طاف فيها العالم الإسلامي، واستمرت زهاءَ خمسين سنةً من حياته، بدأها من العاصمة إستانبول، ثمَّ منها إلى مدينة الأناضول

يُوصَفُ الرَّحالة (أولياً جلبي) بابن بطوطة التركي؛ تعبيراً عن سعة تطوافه ورحلاته التي جاب فيها أنحاء العالم الإسلامي المعمور في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، إذ إنَّه قدَّم وصفاً شاملاً لأوضاع البلدان التي زارها من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ضمَّنه في كتابه (سياحتنامه)، أو كتاب الرحلة.

لهذا فمن المهمَّ التعرُّف بهذا الرَّحالة، وإسهاماته في تكوين صورة عن أوضاع العالم الإسلامي في عصره، والتعرُّف بكتابه، وبجوانب اهتماماته، والمآخذ التي يأخذها المؤرخون على رحلته.

أولاً: أولياً جلبي: حياته وتكوينه العلمي

وُلِدَ الرَّحالة (أولياً جلبي بن درويش محمد) في العاصمة العثمانية (إستانبول) في حيِّ (أونكيات) في ٢٠ آذار ١٦١١م، واسمه الحقيقي غير معروف على وجه الدقة، وقيل: إنَّ اسمه حافظ أحمد بن درويش محمد آغا،^(١) وعُمِّر والدُه حتَّى قيل: إنَّه عاش أكثرَ من مائة وعشرين عاماً، والتحق بخدمة عشرة من السلاطين العثمانيين، بدءاً من السُلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) خبيراً للجواهر، ثمَّ أوكلت إليه مهمَّةُ صناعة ميزاب الكعبة المشرفة، والتحق بقافلة الحجِّ مُتوجِّهاً إلى الديار المقدَّسة في الحجاز؛ لأداء فريضة الحجِّ في عهد السُلطان أحمد الأول (٦٠٣-١٦١٧م).

تلقَّى تعليمه الأوَّل في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي، إذ درَّس القرآن الكريم وتفسيره وتجويده مُدَّة سبع

حتى انتهى إلى فتحها على يد السلطان العثماني محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م، وأسهب في تناول قصة فتحها، وتحدث عن المنشآت العمرانية فيها، وتناول بعد ذلك أحداث الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني، والمنشآت الوقفية المخصصة للحرمين الشريفين في إستانبول، والمستفيدين من ريعها، سواء المنشآت الدينية أو أشرف مكة، وفقراء الحرمين، ثم تناول أهم الشخصيات في عهد السلطان سليمان القانوني، وتنظيماته الإدارية والقوانين التي أصدرها، وتناول الأحداث السياسية في عهد السلاطين: سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤م)، ومراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م)، والسلطان محمد خان بن السلطان مراد (١٥٩٥ - ١٦٠٢م)، والسلطان أحمد خان الأول (١٦٠٢ - ١٦١٧م)، وفي عهد السلطان محمد خان الرابع. الجزء الثاني: تناول فيه رحلته إلى بورصة عام ١٦٤٠م، وآثار هذه المدينة التاريخية وملاحمها العمرانية من مساجد وجوامع وقلاع وحمامات ونواير وأسواق، والصناعات الحرفية التي في مقدمتها صناعة النسيج، ثم انتقل لتناول الأحداث السياسية والعسكرية في عهد السلاطين: مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩م)، ولده السلطان بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢م)، ولده السلطان جلبي محمد (١٤١٣ - ١٤٢١م).

وانتقل بعد ذلك لوصف الرحلة من بورصة إلى إستانبول، ومنها إلى البلاد الشرقية، مثل: أرضروم، وبعض المدن الإيرانية، وقد أورد تفاصيل عن عادات الفرس وتقاليدهم، ومظاهر حياتهم الاجتماعية، وآثارهم التاريخية، كما أشار إلى مواقع أخرى في طريقه إلى جورجيا وفليس، وتحدث عن تاريخ جورجيا، ثم وصف رحلة العودة إلى إستانبول في شتاء عام ١٦٤٦م، وختّم هذا الجزء بتناول منازل رحلته من إستانبول إلى دمشق الشام التي زارها برفقة السلحدار مصطفى باشا عام ١٦٤٧م.

الجزء الثالث: وخَصَّصَهُ (أولياً جلبي) لرحلته من الشام إلى صيدا، سنة ١٦٤٩م، التي زارها برفقة مرتضى باشا وعساكره في حملته على المعينين في جبل لبنان، ووصف (أولياً جلبي) مشاهداته، والمزارات المعروفة في

القرية منها، وتابع تطوّفه على امتداد قارات العالم القديم، وأطلع على أوضاع الناس والبلدان التي زارها، ودَوَّن خلاصة مشاهداته فيها، وما تعرّض له في رحلته، وما أطلع عليه من خصائص البلدان والمدن التي زارها، وما ترخّر به هذه العوالم من مشاهدات قدّر هو أهميّة تدوينها.^(٥)

وارتحل (أولياً جلبي) إلى بلاد الشام وفلسطين والعراق، ثم توجه لأداء فريضة الحج، وانتقل بعدها إلى مصر وأرض الحبشة والسودان، ويبدو أنه مكث في مصر ما يقارب العشر سنوات، هذا فضلاً عن رحلاته إلى الأصقاع الأوروبية؛ إذ زار النمسا وهولندا والسويد والدنمارك وإسبانيا، ودَوَّن مشاهداته تلك في مؤلف سمّاه (سياحتنامه سي)، يقع في عشرة مجلدات.^(٦)

ولا يوجد اتفاق حول تاريخ وفاة (أولياً جلبي)، فهناك من يجعلها في عام ١٦٨٢م، ورأي آخر يجعلها سنة ١٦٨٤م؛ مما يؤكد أن تاريخ وفاته ومكانها غير مؤكدين، غير أن آخر الإشارات المتوفرة في رحلته تشير إلى هذين التاريخين،^(٧) عن عمر يناهز السبعين عاماً، قضى جلها في الترحال ومُصاحبة رجال الدولة، وبخاصة الصدر الأعظم ملك أحمد باشا (١٦٥٠ - ١٦٥١م) الذي قيل: إنه خالهُ، ناهيك عن إسهاماته في الحروب بين الدولة العثمانية والدول الأخرى.^(٨)

ثانياً: كتاب (سياحتنامه)^(٩)

يُعَدُّ كتاب (سياحتنامه) مصدراً رئيساً لكل باحث في تاريخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي في القرن السابع عشر، وقد أثار اهتمام الكثير من الباحثين العرب والأترك والأوروبيين منذ القرن الماضي وحتى الآن، ويتوافر من الكتاب نسخ عدة مخطوطة، كما أنه طبع أكثر من مرة في تركيا وخارجها.^(١٠)

وتوزّع البلدان والموضوعات التي تناولها رحلة (أولياً جلبي) وفقاً لمجلدات الكتاب العشرة، على النحو الآتي:

الجزء الأول: خَصَّصَهُ (أولياً جلبي) لمدينة إستانبول، مُنْطَلَقَ الرحلة، وقد ذكّر سنة بنائها، ومُنْشَأَتِهَا العمرانية، وقلعتها، وتعرّض بعد ذلك للصراعات العسكرية حولها،

زارها في أوروبا عام ١٦٦١م، برفقة الجيش العثماني، وقَدَّمَ وصفَ شاهدٍ عَيَانٍ للمعارك التي خاضتها الدولة العثمانية في أوروبا آنذاك، ثُمَّ انتقل للحديث عن أحداث الدولة العثمانية الداخلية عام ١٦٦٣م. وتوجَّه إلى بلاد الأنكروس (المَجَر)، ووصفَ مُشاهداته في تلك البلدان، وأوضاع المنطقة السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ووصفَ المعارك بين الدولة العثمانية والمَجَر، كما قَدَّمَ وصفًا لـ (كرواتيا) و(سلوفينيا)، وتحدَّث عن فتح العثمانيِّين لها.

الجزء السابع: قَدَّمَ (أوليًّا جلي) وصفًا مُفصَّلًا لبلدان وَسَطٍ وشرقِ أوروبا وشمالها: كالمَجَر، والنمسا، وبلاد البلغار، ثُمَّ تناولَ وصفَ الأوضاع العمرانية فيها، وعَرَّجَ بعد ذلك على وصفِ مُشاهداته في شِبْهِ جزيرة القرم، وداغستان، وبُخارئي، وخُراسان، وإيران، وانتهى فيه إلى وصفِ مُشاهداته في البلدان التي مرَّ بها في طريق عودته إلى إستانبول.

الجزء الثامن: تناولَ فيه رحلته إلى خانات القرم، وأوردَ نُبذةً عنهم، ثُمَّ وصفَ طريقَ عودته إلى (أدرنه) و(سلانيك)، ثُمَّ تحدَّث عن رحلته إلى (رومانيا) عام ١٦٦٧م، و(ألبانيا) و(كريت)، ثُمَّ انتقلَ إلى وصفِ مُشاهداته في رحلةٍ جديدةٍ إلى أواسطِ بلادِ الأناضولِ سنة ١٦٧٠م، ثُمَّ رحلته إلى بلادِ الحجازِ لإداءِ مناسكِ الحجِّ، ووَصَفَ المناطقَ التي مرَّ بها في طريقه إلى الحجازِ في جنوبِ بلادِ الشَّامِ بشيءٍ من التفصيل.

الجزء التاسع: وَخَصَّصَهُ لتفاصيلِ رحلته إلى الحجازِ، وقد وَصَفَ فيه بإسهابٍ منازلَ الحجِّ الشَّاميِّ، مِن دمشق وحتَّى مكة، والقلاع والبرك على طريق الحجِّ، وأوضاع القبائل العربية المقيمة على طريق الحجِّ والخدمات التي تُقدِّمها للحجَّاج وعلاقتها مع الدولة العثمانية. كما أسهبَ في وصفِ الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مكة المكرمة، وتحدَّثَ بإسهابٍ عن سُكَّانِها، وعن أشرافِ مكة، ثُمَّ تناولَ الأماكنَ التاريخيَّةَ وأوصافَ المسجد الحرامِ العمرانيَّةَ والمشاعر، وأوردَ معلوماتٍ تاريخيَّةَ عن بئرِ زمزم والحجرِ الأسودِ. ثُمَّ انتقلَ إلى الحديثِ عن المدينة المنورة، وقَدَّمَ وصفًا دقيقًا لأوضاعها السُّكَّانيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والعمرانيَّة.

جبل لبنان، والبلداتِ الفلسطينيَّة، مثل: صَفَد، وعسقلان، وغزة. وانتقلَ بعدَ ذلكَ لوصفِ مُشاهداته في طريق عودته إلى الأناضول بعد مُغادرته بلادَ الشَّامِ، عام ١٦٤٩م، عن طريق الرُّها، وقيصري، وسيواس، وديار بكر. وأسهبَ في وصفِ مُدُنٍ شرقيِّ تركيا، ثُمَّ وصفَ طريقَ عودته إلى إستانبول سنة ١٦٥٠م. وتحدَّثَ في هذا الجزء عن أوضاع الدولة العثمانية في عهد السُّلطانِ محمد الرَّابع، وانتقلَ بعدها لوصفِ مُدُنِ البلقانِ التي زارها سنة ١٦٥٢م، مثل: فيلبه، وصوفيا، ثُمَّ انتقلَ بعدها لوصفِ طريق عودته إلى إستانبول في شهر شعبان من عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م، ثُمَّ مغادرته إيَّاه في شهر جُمادى الأولى سنة ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م مُتوجِّهًا إلى مدينة (وان) في شرقيِّ تركيا بمصاحبة الصِّدْر الأعظم المَعزول ملك أحمد.

الجزء الرابع: أوردَ فيه تفاصيلَ رحلته من مدينة (إستانبول) إلى مدينة (وان) شرقيِّ تركيا، وعلى غرار منهجه في الرِّحلة وَصَفَ المُشاهد والمساجد والشَّخصيات البارزة التي التقاها وأماكن الزَّهة فيها، كما وَصَفَ الرِّحلة إلى كردستان ومُشاهداته في البلدان الكرديَّة وأوضاع الناس هناك، وطبوغرافية المنطقة ومصادر المياه فيها، ووصفَ مظاهر الحياة الشعبيَّة مِن: غذاء، ولباس، ومسكن، والصناعات الحرفية فيها، وانتقلَ بعدها لوصفِ طريق عودته إلى إستانبول.

الجزء الخامس: استكملَ (أوليًّا جلي) في هذا الجزء مُشاهداته في رحلته إلى مدينة (وان)، و(بدليس)، والبلاد الأخرى التي مرَّ بها في طريق عودته إلى إستانبول سنة ١٦٥٥م.

وقد أسهبَ في الحديث عن الحملة العثمانية على بولندا سنة ١٦٥٦م، ووصفَ الأوضاع السياسيَّة في إستانبول وبلاد الأناضول آنذاك، ثُمَّ رحلته إلى بغداد (الجبل الأسود) (مونتينيغرو) عام ١٦٥٩م، ووصفَ الثورة التي قام بها الأفلاق آنذاك ومُسبِّباتها، وتحدَّثَ عن الأوضاع العامة في البوسنة والهرسك، وقَدَّمَ وصفًا لبعضِ المُدُنِ الرُّومانية.

الجزء السادس: خَصَّصَهُ (أوليًّا جلي) لرحلته إلى بلادِ المَجَرِ وألمانيا وهولندا والسُّويد وغيرها من البلاد التي

مُؤَلَّفَاتُ الطَّيْرِيّ، والمقريريّ، والذهبيّ.
وَيُلاحَظُ على أسلوبه في كتابه: اللغة المُبسَّطة،
والركيكة في الكثير من الأحيان، إلا أَنَّهُ نَجَحَ في توظيف
الغرائب والعجائبيّات في تشويق القارئ وَشَدَّ انتباهه، فأوردَ
الكثير من الأساطير والأخبار التي لا تخلو من المبالغة بأسلوب
قصصيٍّ مُشوِّق. فعندما يصفُ شتاءَ أرضِ روم القاسي يقول:
"بأنَّه تدورُ على ألسنة السُّكَّانِ أَنَّ قِطْعَةً تجمَّدتْ عندما كانت
تقفزُ من سطح بيتٍ إلى آخر، وبعد مرور ثمانية أشهر حينما
تحسَّن الطقس وذابت الثلوج سقطت القِطْعَةُ على الأرض
وهي تَمُوءُ مَوءاً غريباً قبل أن تنطلق بأقصى سرعتها وتختفي
في أحد الأزقة".^(١٤)

ونرى خياله الخصب في وصفه لعملية جراحية،
حَضَرَهَا في (فينّا) العاصمة النمساوية، وقد أُجريت لجريح
مُصاب برصاصة مُستقرّة في رأسه، وكيف قام الجراح
بِفَضْل عَظْم الجُمُجُمَة، وإخراج الرّصاصة، وتنظيف مكان
الجرح قبل أن يُعيد الجُمُجُمَة إلى حالتها الطبيعيّة، ثمَّ أحضر
الطبيب المئات من النمل (دودة الحسان)، وَوَضَعَهَا الواحدة
تَلَوَ الأُخْرَى في مكان الجرح، وبِمُجَرَّد وَضْعِهَا كانت
تَعَضُّ على الجرح، ثمَّ يقوم الطبيب بِفَضْل رَأْس النَّمْلَة عن
وَسَطِهَا بِمَقْصٍّ حتّى تَمَّ لَهُ إِغْلَاقُ مكان العملية، ثمَّ بدأ
النمل بالتساقط بعد ذلك؛ بسبب تيّسّها، وبعد أسابيع
شُفِيَ المريضُ تماماً.^(١٥)

وثمة أمر آخر يلفت النظر فيما أوردّه (أوليا جلي)،
وهو توسُّعه في ذِكر الأساطير والحرفات التي كانت شائعة
بين عامّة النَّاس في البلدان التي زارها حول بطولات
الفرسان، وكرامات الأولياء والدراويش التي هي في معظمها
خارقة للمألوف، وبعيدة عن المنطق والحقيقة التاريخيّة.^(١٦)

ولا يستطيع القارئ أن يجزم فيما إذا كان (أوليا جلي)
قد زار فعلاً كل البلدان والأماكن التي ذكَّرها في
رحلته، والدِّراسة المُتانيّة لهذا الجانب، ومُطابَقَةُ ما يقوله مع
ما ورد في المصادر الأخرى، تكشف فيما إذا كان وصفه
وصف شاهد عيان أم أَنَّهُ اعتمدَ فيما أوردّه على السَّماع،
أو من خلال المصادر التي أفادَ منها. ولعلَّ معرفته باللغات
العربية والفارسية، إلى جانب اليونانية، مكنته من الاطلاع

الجزء العاشر: وهو الجزء الوحيد من بين أجزاء
الرحلة الذي تُرجم للعربية، وقد خَصَّصَهُ (أوليا جلي)
لوصف مُشاهداته في بلاد مصر، والسودان، والحبشة،
وقدَّم فيه وصفاً مُفصَّلاً لعادات الشعوب ومظاهر حياتها
الاجتماعيّة، ولهجاتها ولغاتها، وتاريخها عبر العصور
المختلفة، كما أسهب في الحديث عن الأوضاع الاقتصادية
من: زراعة، وحرف، ناهيك عن حديثه حول الطُّرُق
الصوفيّة، الذي يُشكِّل مادّةً ثرّةً حول تاريخ هذه البلدان
في سبعينيّات القرن السَّابع عشر الميلاديّ.^(١٧)
ثالثاً: منهجيّة الكتاب

أشار (أوليا جلي) إلى دوافعه للقيام برحلته،
وتسطين مُشاهداته تلك، فهو إلى جانب شَغفه ورغبته
الذاتية الملحة في التَّطَوُّف واكتشاف المجهول يُوردُ روايةً
طريفةً يذكُر فيها ما كان حافزاً له لشحذ عزمته على الرحلة
والتَّطَوُّف، وهي لا تخلو من المبالغة، إذ يقول: إِنَّه شاهد
حُلُمًا غيّر حياته ودفعه إلى عالمٍ جديد، فيقول: "حُلُمْتُ
في ليلة عاشوراء في شهر مُحَرَّم سنة ١٦٣٠م أَنِّي أصلي
في جامع (آخي جلي)، عندما رأيتُ رسول الله - صلى الله
عليه وسلّم - أمامي اضطربت من جلال الموقف؛ وبسبب
المُفاجأة التي سيطرت على مشاعري، وبدلاً من أن أرددَ
أمامه: شفاعة يا رسول الله، إذ بي أقول: سياحة يا رسول
الله... في تلك اللحظة اقترب مني من بين الجموع سعد
بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قائلاً لي: انطلق كَالسَّهْمِ
والرَّمح في بلاد الله، وسجِّل كُلَّ ما تراه في المُدُن والبلدان
التي ستَمُرُّ بها، والحوادث الغريبة التي تُصادفك، واكتب عن
ما كل سُكَّانها ومُشرِّبهم وأطباعهم وعاداتهم".^(١٨)

يعتمد (أوليا جلي) في إيراد معلوماته حول البلدان
والمُدُن التي زارها على المشاهدة والعيان في المَقَام الأوّل،
إلى جانب الاستناد إلى المصادر التاريخية المتاحة، إذ مكَّنه
تطوُّفه الواسع من الاطلاع على مَصادِر تاريخيّة مُتنوّعة،
أفادَ منها في الحديث عن تاريخ البلدان التي مرَّ بها وتحدّث
عنها في رحلته، غير أَنَّهُ - في الغالب - لا يُشير إلى هذه
المصادر التي اتَّكأ عليها،^(١٩) وعندما تتابع ما تحدّث به عن
البلاد العربيّة فإنَّه استندَ على مَصادِر مُتنوّعة، من بينها:

على الكتب والوثائق المكتوبة بهذه اللغات وتوظيفها في رحلته.^(١٧)

غير أن الكثير من الأحداث التاريخية التي يزخر بها الكتاب، ووصف المعارك وعلاقات الدولة العثمانية مع دول الجوار ومشاهداته الحية التي رصدها في كثير من البلدان التي أتى على وصفها في كتابه تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، بأنها حصيله تجارب ذاتية اكتسبها في أثناء تطوافه في تلك البلدان. وإجمالاً تحوي هذه الرحلة مادة غنية تعكس أوضاع الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، والدول المجاورة لها في آسيا وإفريقيا وأوروبا، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، تتيح للباحثين والدارسين إمكانيات كبيرة للخروج بدراسات مستفيضة ومعمقة.^(١٨) رابعاً: نماذج من وصف (أولياً جلي) ومشاهداته:

من الصعب على الباحث الإحاطة بكل جوانب الكتاب؛ نظراً لغزارة المادة التي اشتمل عليها، وسعة المناطق التي وصفها. ومن المفيد الإشارة إلى بعض هذه الجوانب؛ فمثلاً عند زيارته للموصل والجزيرة الفراتية قدم وصفاً مهماً للأوضاع العمرانية والاقتصادية والاجتماعية، كما أشار إلى التنوع العرقي والإثني والطائفي، فمدنوها يستوطنها عرب وأتراك وأكراد وسريان وأرمن، ومنهم المسلمون والمسيحيون واليهود، إلى جانب ديانات غريبة أشار إليها (أولياً جلي)، مثل: اليزيدية، وهم طائفة دينية اعترفت بها الدولة العثمانية على أنها ملّة من الملل، وهي ديانة يحيط بها الغموض؛ بسبب ندرة المعلومات التاريخية المتوفرة حول حقيقة ديانتهم ومعتقداتهم الدينية والشعائر والطقوس التي يمارسونها؛ بسبب الكتمان الذي يحيطون به أنفسهم.

والتقى (أولياً جلي) في صيف عام ١٦٥٥م بجماعة من اليزيدية في جبل (سِنجار)، ولَفَت انتباهه شعور الرجال الطويلة، كما وسمّهم بالمظهر السَّيِّي والقذارة، يتسلحون بالسُّيُوف والخناجر وهم من المهارة في الرمي في النشاب بحيث يستطيعون إصابة عين البرغوث، ومرفق الحمل.

ويقول عنهم بأنهم يقدسون الكلاب، ويضعون أولادهم حليها، وإذا مات أحد أعيانهم فإنهم يغسلونه

بماء البصل، ويدفنون معه في قبره كميات كبيرة منه.^(١٩) وأبدى (أولياً جلي) اهتماماً ملحوظاً بالتصويف ومظاهره في البلدان التي زارها، ومستنده في كثير من الأخبار التي أوردتها في هذا السياق على السماع والمشاهدة وتجاربه الذاتية وخبرته بواقع البلاد التي زارها، وما كان يستقيه من بطون كتب التاريخ والرحلات التي أمكنه الاطلاع عليها، وفي هذا السياق أولى اهتماماً للحديث عن إعمار السلطان العثماني سليم الأول لـضريح الشيخ والفُطْب الأكبر مُحبي الدين بن عربي ومسجده، ويتضح مما أوردته (أولياً جلي) أن ما أضيف من أساطير حوله هي عبارة عن تراكمات للخيال الشعبي عبر قرونٍ عدّة مع تطاول الزمن.^(٢٠)

وتحدّث (أولياً جلي) بإسهاب حول التكايا الصوفيّة والطرق الصوفيّة في مصر، والتي حظيت باهتمام السلاطين والولاة العثمانيين؛ ففي القاهرة وحدها على ما يذكر (أولياً جلي) (١٠٦٠) ألف وستون زاوية صوفيّة، ولطريقة الشيخ أحمد البدوي (٢٠٦٠) ألفان وستون زاوية في عموم مصر، ومائتا زاوية في مصر وحدها،^(٢١) وفي مصر (٤٣) ثلاث وأربعون تكيّة عامرة،^(٢٢) وقد أسهب في الحديث عن الممارسات والشعائر والطقوس التي يمارسها الصوفيّة في مصر، مثل: إحياء ليالي معيَّنة حتى الصّباح من أجل قراءة القرآن الكريم، والاجتماع بعد صلاة الجمعة وتلاوة سورة الكهف والأوراد والأذكار وإنشاد الأشعار، وممارسة العزلة والصوم والمجاهدات، والتدريس وخدمة المريدين في التكايا، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وموالد المشايخ والأولياء ومؤسسي الطرق الصوفيّة.^(٢٣)

ومن الأمثلة الأخرى التي نوردتها عمق قراءة الرحالة (أولياً جلي) لجوانب التاريخ الاقتصادي، من زراعة وصناعة وحرف، ويَلَفَت النَّظَر حديثه المسهب حول الطوائف الحرفيّة في مدينة القاهرة، فقد أشار إلى (٢٩٣) طائفة من أحياء القاهرة ومصر القديمة وبولاق، تشير بمجموعها إلى مدى التطور الذي شهدته الصناعات الحرفيّة في المدين الإسلاميّة، وتنوّع هذه الحرف لتشمل جميع جوانب النشاط الاقتصادي والاجتماعي، كما أشار بعُمق إلى تنظيمات هذه الطوائف والأنظمة واللوائح التنظيمية

وأشار - أيضاً - إلى فئة الأشراف، واعتمادهم على المساعدات المالية التي تُقدِّم إليهم من أنحاء العالم الإسلامي، إضافة إلى حصّة من واردات جمارك ميناء جدّة تصل إلى النصف. (٢٦)

الخلاصة:

حاول الباحث في هذه الورقة التعريف بكتاب (سياحنامه) للرَّحالة التركي (أوليا جلي)؛ لما لهذا الكتاب من أهمية فيما يحويه من مادة ثرّة تُمكن الباحثين من تكوين صورة مُعمّقة عن أوضاع الدولة العثمانية، والولايات التابعة لها، والدول الأوروبية التي أمكن للرَّحالة زيارتها، وهي إلى جانب غيرها من المصادر الأخرى المتاحة تُهيئ للباحثين فرصة الدراسة المُعمّقة لدراسة جوانب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي في القرن السابع عشر، ومن جانب آخر فإنَّ التعريف بهذا الرَّحالة، وبكتابه يُتيح للقارئ التعرف على نموذج من كتب الرحلة التي ترخّرها المكتبة العربية والإسلامية بما يحويه هذا المصدر من مادة ثرّة تُمكن الباحث من دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وتاريخ المذاهب واللغات، إلى جانب دراسات أخرى لِمُختلف جوانب التاريخ الحضاري التي قلَّ أن نجد لها نظيراً في المصادر الأخرى.

وما أحوَج المكتبة العربية إلى أن تنهض جهود الباحثين والمؤسسات الأكاديمية ومراكز البحوث للتصدي لترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، ووضعه في متناول الباحثين والمهتمين من أجل إثراء الدراسات التاريخية حول البلاد العربية في العهد العثماني عموماً، كما أنه يَضَع هذا الكتاب في مكانه اللائق بين المؤلفات التاريخية في القرون المتأخرة.

والكتاب - في تقديري - شاهد مُهم - إلى جانب غيره من المؤلفات التي تعود إلى هذه القرون - على خطِّ المَقولة التي تتهم هذه القرون بالعمق الذهني والفكري.

التَّبَعَة داخل هذه الطوائف، وأحكام الرِّقابة عليها من خلال المُحتسِب الذي يُجسّد الرِّقابة الحُكُومِيَّة للدولة، وعلاقة هذه الحُرَف مع بعضها البعض. (٢٤)

ويُعَدُّ تنوُّع اللغات وتعدُّد اللهجات جانباً آخر استرعى اهتمام (أوليا جلي) في رحلاته، ومما يلفت النظر اهتمامه بدلالات الأسماء ومعانيها وتطوُّر دلالاتها، وقدرته الفذة على توظيف الإرث التاريخي في تفسير هذه الدلالات، واستناذه إلى القرآن الكريم وكتب الحديث والمؤلفات التاريخية والجغرافية وكتب الرِّحلات، واهتمامه بالنقوش الموجودة على جدران المعابد واجتهاده في قراءتها، وهذا واضح من خلال إشارته إلى قراءة النقوش في القسطنطينية، وعلى جدران المعابد الفرعونية في مصر، ومقارنته بين اللغات العربية والعبرية واللاتينية والقبطية، واهتمامه بترجمة المُصطلحات ومعاني الأسماء والألقاب، وإيراده تسميات الأماكن في اللغات المُتعدِّدة، إلى جانب اهتمامه بترجمة الألقاب والمُصطلحات العسكرية والمدنية، وتطوُّر دلالات هذه اللغات والمُصطلحات من عصر إلى آخر. (٢٥)

ومن المُفيد أن نختم عَرْضَنَا لِنَمَازِجٍ مِمَّا يَرُخَّرُ بِهِ كِتَابُ (سياحنامه) بما قدَّمه من وَصْفٍ للأوضاع الاقتصادية لِمَدِينَةِ مَكَّة المُكْرَمَةِ، فقد أشار إلى مُورِد عَيْشِ سُكَّانِ الحِجَازِ الرَّئِيسِ المُعْتَمِدِ عَلَى الْمَسَاعِدَاتِ الْمَالِيَّةِ الَّتِي تُرْسِلُهَا الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ خِلَالَ مُوسَمِ الْحَجِّ، وَالَّتِي تُسَمَّى (مال الصُّرَّة)، وَمَا يَصِلُهَا مِنْ مُسَاعِدَاتٍ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْمَوَادِّ الْغَذَائِيَّةِ الَّتِي تُرْسَلُ مِنْ مِصْرَ وَالْيَمَنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْبُلْدَانِ، وَأشار إلى أسواق مَكَّة الَّتِي تُعْجُ بِأَصْنَافِ الطَّعَامِ وَالْفَوَاكِهِ خِلَالَ مُوسَمِ الْحَجِّ، وَتَحْدُثُ - أَيْضاً - عَنْ أَمْرِجَةِ سُكَّانِ مَكَّة وَمَلَامِحِهِمُ الْبَدَنِيَّةِ، وَعَصَبِيَّتِهِمْ، وَضَعْفِ أَبْدَانِهِمْ؛ بِسَبَبِ تَأْثِيرِ الْحَرَارَةِ عَلَيْهِمْ، وَأشار إلى أَنَّ جُلَّ أَهْلِهَا مِنْ أَتْبَاعِ الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَهُنَاكَ وَجُودٌ مُحَدُودٌ لِلشَّيْعَةِ الزَيْدِيَّةِ، وَجُلُّ أَهْلِ مَكَّة يَحْتَرِفُونَ التَّجَارَةَ، وَهُنَاكَ مَا يَقْرُبُ مِنْ (١٣٠٠) أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مَحَلٍّ تِجَارِيٍّ فِيهَا، وَثَلَاثَةٌ مُجَمَّعَاتٍ لِلْأَسْوَاقِ، وَمُعْظَمُ دُكَّانِيهَا مُخَصَّصَةٌ لِتِجَارَةِ الْأَقْمِشَةِ وَالْعِطَارَةِ، كَمَا أَشارَ إِلَى سِمَةِ الثَّرَاءِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا أَهْلُ مَكَّة، وَالَّتِي انْعَكَسَتْ أَثَارُهَا عَلَى حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ.

المراجع

- (١) ثريا، محمد. سِجَلٌ عُثْمَانِيٌّ أو تذكرة مشاهير عثمانية، إستانبول: المطبعة العامة، ١٣٠٨هـ، ج ١، ص ٤٤٤.
- (2) Alptekin A.B. Evliya Gelebi Seyahathanesinden Segmeler, Ankara, 2005, p 18
- (٣) ألقه: هي وحدة النقد الرئيسية في الدولة العثمانية، وهي من الفضة، انظر:
- ساحلي، خليل. "النقود العثمانية في البلاد العربية"، حوالية كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مج ٢، أيار ١٩٧١م، ص ١٠٥ وما بعدها.
- (٤) سامي، شمس الدين. قاموس الأعلام، مهران إستانبول: مطبعة سي، ١٣١٦هـ، ج ٢، ص ١١٠.
- (5) Isik, I. Yazalarsozlagu, Risale yay, Istambul, 1990, p 175-176
- (6) The Encyclopaedia of Islam vol II Liden 1991, pp.717-719.
- (7) Islam Encyclopedia Türkiye Diyanet Vakfi, vol II, p 579.
- (8) Turk Dili Edebiyati Ansiklopedisi, Istanbul: Dergah Yay, 1979, Vol 3, p.p 125-126.
- (٩) طُبِعَتْ هذه الرِّحْلَةُ طبعاتٍ عدَّة، أقدِّمُها طبعَةً بولاق في القاهرة سنة ١٨٤٨م، بعنوان: مُتَخَبَاتٍ أُولَيَّا جَلِي، ثُمَّ طُبِعَتْ بِمَطْبَعَةِ دار إقبال في أنقرة ما بين ١٨٩٦-١٩٠٢م، وأصدرَ هُما أوزاون طبعَةً أُخْرَى بين العامين ١٩٤٤-١٩٤٥م، وطبعَة أُخْرَى صدرت بعناية رشاد جوجو في استانبول بين عامي ١٩٤٣-١٩٥١م، وطبعَة أُخْرَى بعناية ظهيري دانشمان عام ١٩٦٩م-١٩٧٠م، والطبعَة التي أصدرَها توفيق قوران ونجاتي أقطاش بين عامي ١٩٧٥-١٩٧٦م، ثُمَّ طبعَة دار أوج في استانبول سنة ١٩٨٥م، إلى جانب طبعاتٍ أُخْرَى لم يتيسَّرَ لنا حَصْرُها، ونُشِرَتْ مُتَخَبَاتٍ مِنَ الرِّحْلَةِ، منها: (أَجَلُ النصوص من رِحْلَةِ أُولَيَّا جَلِي) جَمَعَهَا محمد أفسوي وسوري سرور أسكيت عام ١٩٦٢م، و(مُتَخَبَاتٍ من رِحْلَةِ أُولَيَّا جَلِي) أعدَّها هُما إيسر عامي ١٩٧١-١٩٧٢م، وتُرْجِمُ الجزآن الأول والثاني من الرِّحْلَةِ إلى اللغة الإنجليزية من قِبَلِ هَامِر في لندن عامي ١٨٣٤-١٨٥٠م بعنوان Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa by Evliya Efendi وتُرْجِمُ
- الجزءَ المُعلَّقُ بِالْمَجَرِ إلى اللغةِ المَجرِيَّةِ مِنْ قِبَلِ (كارجوان)، كما أُجْرِيتْ دراساتٌ عِلْمِيَّةٌ كَثِيرَةٌ عَلَى الرِّحْلَةِ، كَمَا نَظَّمَتْ نَدَوَاتٍ عِلْمِيَّاتٍ حَوْلَ (أُولَيَّا جَلِي) إِحْدَاهَا فِي اسْتَنْبُول فِي الْعَام ٢٠١٠م، وَأُخْرَى فِي جَامِعَةِ آلِ الْبَيْتِ فِي الْعَام ٢٠١١م، وَلِلْمَزِيدِ انظر:
- Islam Encyclopedi Türkiye Diyanet Vakfe, Istanbul, 1955 Islam Ansiklopedisi T.D.V: 11/533.
- ولم يُترَجَمْ - في حُدُودِ عِلْمِي - إلى اللغةِ العربيَّةِ حَتَّى الْآنَ إِلَّا الْمَجْلَدُ الْعَاشِرُ الَّذِي تُرْجِمُ فِي الْعَام ٢٠٠٦م تَحْتَ عِوَانِ (أُولَيَّا جَلِي: الرِّحْلَةُ إِلَى مِصْرَ وَالسُّودَانِ وَالْحَبَشَةِ)، تَرْجَمَهُ: حَسِينُ مُجِيبِ الْمِصْرِيِّ وَأَخْرَوْنَ، الْقَاهِرَةُ، دارُ الْآفَاقِ العربيَّةِ، ج ٢، ٢٠٠٦م، وَالتَّرْجُمَةُ الثَّانِيَّةُ بِعِوَانِ: (سِيَاحَتِ مِصْرَ أُولَيَّا جَلِي)، تَرْجَمَهُ: مُحَمَّدُ عَلِي عَوْنِي، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْوَهَّابِ عِزَامَ، وَأَحْمَدُ السَّعِيدِ سَلِيمَانِ، الْقَاهِرَةُ: دارُ الْكُتُبِ وَالوِثَائِقِ الْمِصْرِيَّةِ، ٢٠٠٩م.
- (١٠) يَتَوَافَرُ لِلْكِتَابِ الْعَدِيدُ مِنَ النُّسخِ الْمَخْطُوطَةِ فِي مَكْتَبَاتِ اسْتَنْبُولِ وَالْعَالَمِ، أَشْهَرُهَا نَسْخَةُ مَكْتَبَةِ مِلْتِ بِحَيِّ الْفَاتِحِ، نَسْخَةُ مَكْتَبَةِ السُّلَيْمَانِيَّةِ، مَكْتَبَةِ قِصْرِ طُوبِ قَايِي.
- (١١) أَفَادَ الْبَاحِثُ فِي إِعْدَادِ هَذَا الْعَرَضِ الْمَفْصَّلِ لِمُحْتَوَيَاتِ كِتَابِ (سِيَاحَتِ نَامِه) مِنَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي قُدِّمَتْ لِلنَّدْوَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَرْكَزُ دَرَسَاتِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ/ جَامِعَةِ آلِ الْبَيْتِ بِالْعِوَانِ: مَعِ آرْسِيكَا، ٢٠١١م، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الْوَرَقَةَ الَّتِي تَقَدَّمَ بِهَا مُحَمَّدُ نَجْمِ الْحَقِّ النَّدَوِي: تَصْوِيرُ أَوْضَاعِ الْحِجَازِ فِي رِحْلَةِ أُولَيَّا جَلِي: دَرَسَةُ تَارِيخِيَّةٍ، إِلَى جَانِبِ بَحْثِ النَّدْوَةِ الْأُخْرَى.
- (12) ALptekin, Evliy a Gelebi, p18.
- (13) The Encyclopaedia of Islam, pp 719-72.
- (14) The Encyclopaedia of Islam Vol II p.109.
- (١٥) مردان، نصرت. "الرِّحَالَةُ أُولَيَّا جَلِي وَالْيُونِسْكَو"، مجلَّةُ الْإِخَاءِ، ع ٢٤٧-٢٤٨، ٢٠١٠م، ص ٨-٩.
- (١٦) محمد، هشام سوادِي. "رِحْلَةُ أُولَيَّا جَلِي مِنْ مَلَاطِيَّةِ إِلَى الْمَوْصَلِ"، ندوة (سِيَاحَتِ نَامِه) أُولَيَّا جَلِي، جَامِعَةُ آلِ الْبَيْتِ ٢٠١١م، ص ٥ وما بعدها.
- (17) The Encyclopaedia of Islam Vol II p 719-721.
- (١٨) لويس: برنارد. استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة: سيّد رضوان علي، الرياض: الدار السعودية، ط ٢، ١٩٨٢م، ص ٢٠ وما بعدها.

(١٩) للمزيد انظر:

- محمد، رحلة أوليًا جلي من ملاطية إلى الموصل، مرجع سابق، ص ٩-١٠١.

(٢٠) انظر نص الحكاية في:

- جلي، أوليًا. سياحته مصر، ترجمة: محمد علي عوني، القاهرة: دار الوثائق القومية، ٢٠٠٩م، ص ١٦٦.

(٢١) المرجع السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٣٦.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٣٣، ولتفاصيل أوفى حول هذا الجانب، انظر:

- عودة، أمين يوسف. "دولة التصوف: مظاهرها وتجليات نظمها في سياحة مصر للرحالة التركي أوليًا جلي"، ندوة سياحة أوليًا جلي، مركز دراسات العالم الإسلامي ٢٠١١م، ص ٥ وما بعدها.

(٢٤) لمزيد حول هذا الجانب انظر:

- هريدي، صلاح أحمد. "الطوائف الحرفية في القاهرة من واقع سياحة مصر للرحالة أوليًا جلي"، ندوة سياحة أوليًا جلي، مركز دراسات العالم الإسلامي، ص ٨ وما بعدها.

(٢٥) لتفاصيل أوفى حول هذا الجانب في كتاب سياحته، انظر:

- الشلبي، سهيل. "عالم اللغات في سياحته أوليًا جلي إلى مصر والشودان والحشة"، ندوة سياحته أوليًا جلي، مركز دراسات العالم الإسلامي، ص ١ وما بعدها.

(٢٦) للمزيد من التفاصيل، انظر:

- الندوي، محمد نجم الحق. "تصوير أوضاع الحجاز في رحلة أوليًا جلي: دراسة تاريخية"، ندوة سياحته أوليًا جلي، مركز دراسات العالم الإسلامي، ص ١١ وما بعدها.